**أولا- السرد العربي القديم النشأة والتطور والخصائص:**

يشكل السرد العربي صورة جلية لنمو الأشكال الشفوية المتحولة الى نص مكتوب يوجد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة ومؤلفات التراجم والسير والطبقات، ونصوص المقامات والأخبار، وكل التقييدات المحسوبة على التاريخ والجغرافيا الوصفية والرحلات أيضا في مؤلفات الفقه وعلم الحديث وعلم الكلام .

ذلك أن عملية الانتقال من الشفوي الى المكتوب سجلت بصمات أساسية في رسم تحول استراتيجي لبناءات مشتتة تحت معطف الشعر الدافئ وأشكال صغرى لتأريخ الزمن، و بعض أحداثه ضمن نسق المكتوب، فدراسة تشكل الآداب بتعبير -جان بسيير- تنتمي الى التاريخ، وتطرح مسألة التجانس والاستمرارية والطبيعة المشتركة أي الانتقال من الشفوي الى المكتوب، من المقدّس الى الدنيوي بحيث إن السرد العربي في تشكّلاته الطويلة والمعقدة، والطابع المحايث لبراغماتية النثر ووظيفته المتنامية، حقق الانتقال التدريجي، ومعه تحققت مسارات أخرى من التحول في مستويات شتى أبرزها تحويل التجربة الذهنية أو المعيشة من أفعال وتخيلات الى لغة شفوية ومكتوبة ضمن نسق تجنّسي معين([[1]](#footnote-2)).

الكتابة مثل التفكير ليست انعكاسا بسيطا للعالم وإنما هي نسق من الرموز والعلامات لعناصر واقعية أو عناصر من التجربة بنوعيها، ومكونات أخرى لا محدودة متداخلة، تتشكل باعتبارها بنيات أو عناصر مفردة، وذلك في إطار متخيل عام، حيث استطاعت المخيلة الصاهرة لكل العناصر (الثقافية) أن تكتنز الماضي الطويل، وان تبقي على الرغم من إحداثات الزمن الظرفية على الأسس الثابتة لاستمرارية الأمة الناقلة لتراثها في سياق التحولات التي قادت السرد العربي للانتقال من الشفاهية إلى المكتوب، كانت هناك عوامل محددة ساهمت في بناء نسق ثقافي مؤطر دينيا بظهور القرآن الكريم والإعجاز البلاغي، القصص القرآنية، وما أفرزته المرحلة في ارتباطها بأيام العرب الجاهلية، من انفتاح مجموعة من الرواة والمفسرين على سرد ما جاء في القرآن وذكر المغازي، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسير الأنبياء والأولين بالإضافة الى كتب شروح الشعر المختلفة والأمثال والتراجم والطبقات والتاريخ والبلدان ومهام الرواة في استعادة حكي أيام العرب.

هذه البنية الدينية المؤطرة بأهداف مرسومة ستعرف اتساعا ببروز أشكال محايثة تضفي التنوع على هذا النسق الثقافي الذي يحضر فيه السرد جليا، بحيث اتسعت الدائرة لتشمل سير الملوك الأوائل والحروب وأيضا أدب المسامرات، والعودة الى تقييد تواريخ ماضية حول بدء الخلق (الخليقة) ونشوء الإنسان وسط صراعه الذي لا ينتهي.

إن السرد الحكائي المدثّر بأهداف دينية يبتغي الوعظ والتثبيت متخذا متعة الحكي سبيلا خرج من معطف الشفوي، وأيضا التناقل الذي كان عملية ديناميكية تؤدي الى آثار بالغة الأهمية في تكوين النص الشعبي شكلا ومضمونا، ذلك أن التناقل الشفوي يحرر النص الشعبي من الأطر الثابة والمنتهي منها نتيجة التقيد بالكتابة، فجل التدوينات الأدبية في مختلف الأنواع المسبوقة بالشفوي وآثاره، والحضور القوي للمتلقي المتشبع بالحس الحكائي لن تسلم من نفس الحكي والأخبار عبر التقاط اللحظات الماضية في مستويات مختلفة متقاطعة ومرفودة بتأطير الحس البطولي، ووسط ملتقى حافل بتقاطعات حيوية، فيها الثقافي والديني والتاريخي والجغرافي والسياسي .

إن التداخل بين ما هو أدبي وتاريخي أتاح للسرد أن ينمو وينتظم داخل نسق مأهول بتفاعلات وبآثار شتى .ويلاحظ في شكلين بارزين هما([[2]](#footnote-3)):

* المؤلفات التاريخية
* المؤلفات ذات المادة الأدبية المتنوعة.

1. **المؤلفات التاريخية :**
2. وقائع التاريخ القريب وهي سرد بخلفيات دينية لتأكيد ما جاء به الإسلام.
3. وقائع التاريخ البعيد وهي المخلوطة بالخرافات والأساطير الأولى بما فيها الحروب وأخبار الأولين من شعراء وملوك بالاعتماد على مصادر شفوية.

* تضمنت هذه المؤلفات أنواعا سردية منها :

حكي حول الأشخاص: تبئير شخوص واقعية في الوجود، حّققت أثرا فعليا أو روحيا يعكس اعتبارا معينا، كما اشتهرت – ضمن كتب التاريخ– مؤلفات وفيات الأعيان والطبقات والأنساب والتراجم والوقائع.

يقول ابن حجر العسقلاني (773ﻫ/852ﻫ) في تقديمه: «هذا تعليق جمعتُ فيه حوادث الزمان الذي أدركته منذ مولدي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وهَلُمَّ جرًا، مفصلا في كل سنة (أحوال الدول) عن وفيات الأعيان مستوعبا لرواة الحديث نصوص من لقيته أو أجازلي، وغالب ما أورد فيه من شاهدته أو تلقيته ممن أرجع إليه أو وجدته بخط أثق به من مشايخي ورفقتي كالتاريخ الكبير»([[3]](#footnote-4)).

هناك أيضا؛ حكي يلتقط بعض الظواهر التاريخية والطبيعية: سواءٌ المفسرة أو غير المفسرة يروي العسقلاني أنه: «في سلخ جمادى الآخر كسرت جرار الخمر بالرميلة حملت من بيوت أساري الأرمن التي بالكوم قرب الجامع الطولوني.

وفي رجب جردت العساكر لردع عرب الشرقية الزهيرية (لكثرة) فسادهم .في أول يوم منه ادعى علي بن سبع شيخ العرب الزفتة بأشياء تنافي الشريعة، وشهدت عليه جماعة عند قاضي القضاة ابن خير المالكي، فسعى جماعة إلى أن خلص ونقل إلى الشافعية فحكم بحقن دمه»([[4]](#footnote-5))

قد تشكلت هذه الحكايات حول الظواهر بصياغات متعددَّة، مما أكسبها مسارًا حكائيا بشكل أكبر من الحكي الذي جاء حول الفضاءات، منظورا إليها تاريخيا ورمزيا وأسطوريا أيضا.

يروي المسعودي في هذا السياق، عن فضاء الإسكندرية قائلا: «ذكر جماعة من أهل العلم أن الأسكندر المقدونّي لما إستقام مُلكه في بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم وعُمدًا كثيرة من الرخام، في وسطها عمود عظيم، عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد –أنا شداد بن عاد بن شداد عاد شددت بساعدي البلاد وقطعت عظيم العماد، من الجبال والأطواد.أنابنيت إِرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد [...] ونزل إلاسكندر متفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث فحشر الضياع وحط الأساس وجعل طولها وعرضها أميالا»([[5]](#footnote-6)).

هذه الأنواع الثلاثة (حكي حول الأشخاص – حكي يلتقط بعض الظواهر التاريخية والطبيعية - حكي الذي جاء حول الفضاءات) من السرود في المؤلفات التاريخية والأشكال المتفرعة عنها، تفرز الحدث الحكاية التي عادت ما تكون قصيرة ومحدودة، ولكنها تنسج في مجموعها بناء تأريخيا حول فترة زمنية أو فضاء أو ظواهر، ووقائع مرتبطة فيما بينها .

هذا البناء السردي يعتمد بنية الخبر استنادا عن طريق المشاهدة أو السماع أو مطالعة المؤلفات الكبرى من التاريخ، فضلا عن هذا فالنصوص التاريخية وغيرها، وهي تعيد بناء أبطال كانوا في الواقع المادي ثم الذهني مقابل نصوص حكائية، ترسم أبطالا في المتخيل الشعبي ووقائع تصاغ في سيافات جديدة تشترك في سمات تتكرر بنسب متواترة ذات حضور جلّي([[6]](#footnote-7)):

1. التشويق في الحكي
2. الجنوح الى الغرابة
3. عنصر الأرتحال والأنتقال
4. **المؤلفات ذات المادة المتنوعة:**

ساد هذا النوع فترة طويلة مخلفا مؤلفات تُعنى بالحديث في أبواب شتى، تفصيلا واستطرادا كاللغة، وأخبار الشعراء والمجالس الأدبية والتراجم، وأيضا وقائع حول الملوك والفرسان، أو بعض الغرائب والطرائف والمسامرات والشروح، أنها نوع من الكتابة المتنوعة التي تبرز تعدد إهتمامات المؤلف والرغبة في التاريخ للشتات السردي الباحث عن أفق أجناسي يترسّم عبرهُ وينمو.

ففي مؤلفات أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي، نقط إلتقاء حول منطلقات عامة، أجلاها أن هذه المؤلفات تتمحور حول الأدب، وتتضمن الرغبة في الحكي المؤّنث بالإنفتاح على إستطرادات في أنواع أخرى.

إذا كانت مؤلفات التاريخ والنصوص ذات البناءات المتنوعة قد تشربت بطريقة أو بأخرى النصوص الدينية ذات الإعجاز البلاغي وعلوم الفقه والتفسير ومحكيات المغازي وما تشعب عن كل هذا فإنها جمعت شتاتا حكائيا ثريا يتأرجح بين تاريخ الوقائع والأخبار من جهة، والتخيّلات الناعمة والقاسية من جهة ثانية. محكيان ينتسبان إلى دائرة واحدة تتخصب وتتولد في أشكال أخرى وبتلاوين مختلفة شأن مؤلفات التراجم والسير وغيرهما ومع نضج الوعي بالسرد باعتباره كتابة وسط تشكّل الدولة، وفي إطار المثاقفة، أصبحت الحاجة ضرورية إلى توسيع إضافي في دائرة السرد حتى يساير التحولات، ويلتقط الطارئ، بحثا عن تفسيرات له وأيضا تدوين ما لم يكتبه الكلام الموزون المقُفَّى، وعجنه في نسيج تخييلي، يربط الواقع بفوق الطبيعي الطاعن في الغيب والعجيب.

وتدقيقا فابتداء من القرن الرابع الهجري ظهرت أشكال سردية تخيط الشتات وشذر التحول من القبيلة –بعصبيتها –الى الدولة في شكلها المستعار حين أو الناقص حينا آخر بحث عن كمال مزعوم يضاهي الروم حضارة، والإغريق ثقافةً، والعهد الراشديّ عقيدة([[7]](#footnote-8)) .

* جاءت الأشكال السردية في قطبين كبيرين هما([[8]](#footnote-9)):

1) **الأشكال الخالصة** :المقامة والسيرة والحكاية الشعبية، الرحلات....

2) **الأشكال** **الهجينة**: فيندرج ضمنها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة ثم أدب القيامة والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء.

لا تنفصل هذه الأشكال الخالصة عن الهجينة إذْ هما معا يتفاعلان باستمرار مع المصنفات المدرجة ضمن ما أخضعه الفكر العربي للتصنيف، فصنّفت أنماط الناس وكتب عن كل صنف فظهرت كتب في أخبار الظرفاء والأذكياء، وفي أخبار المجانين والمغفلين والحمقى والطفليين، وعلى هذا النمط ظهرت الكتب في الحيوانات وعجائب المخلوقات وكتب في خصائص البلدان، الى غير ذلك من الكتب التي تختص بظواهر الحياة كافة.

حيث تطورت وارتبطت بتقاليد المجتمع وعاداته وذاكرته فالتقطت المقامة مادتها الخام من اخبار الشُّطّار والكدين في علاقتهم بذواتهم وبالمجتمع وبالآخرين كما سعت السير والحكايات والشعبية والرحلات الى رصد تفاصيل حيوات متخيّلة إن الأشكال الخالصة قائمة بذاتها تمكنت من خلال النصوص المتوفرة ذات النضج ألفني من التعبير عن مرحلتها، وإفراز مجموعة من الخواص المشتركة بينها، فضلا عن **خصائصها النوعية المميزة لها** ولسماتها، وحتى بعض أهدافها هذه الخواص يمكن اختزالها في:

**ثلاث مستويات :**

أ)- **اللغة والأسلوب:** يحفل سرد الحكايات باللغة عبر الاتكاء على تخليلات من الشعر والأمثال والآيات القرآنية، بعض الاستشهادات المتنوعة ثم أسلوب التشويق والتسلسل الخطي المدعوم بالاسترجاعات والاستطراد لكن طريقة بناء الجملة وتقديمها يبقى في المقامة غيره في السيرة أو الرحلة أو المغازي أو التراجم.

**ب**- **هيمنة الفرد البطل** : وذلك من خلال حضور قوي لعنصر الفرد المهيمن في المقامة باعتباره المحور الذي تنتسج حوله الأحداث، وأيضا السير الشعبية التي تُؤسطر الفرد، وتجعل منه رمزا وصورة فوق طبيعته للنموذج المطلوب أما الحكاية الشعبية فهي لا تستقيم إلا عبر تبئير المفرد المتعددة.

وفي كل الحالات يمكن الحديث عن خلفية هذا الإضاءة الموجهة نحو الفرد وذلك بذاته الكتابة عند جميع الشعوب وفي كل المراحل، الرغبة الدفينة للإنسان العربي في التماهي مع أحلامه تجاوزا لعجزه وتحقيقا لكماله المفقود.

**ﺟ- المتخيل:** وهو خطاب يجد لنفسه قطبا واسعا وتتفاعل فيه العديد من المتغايرات، ولكنه، في العام يتشكل داخل قطب المواجهة والتصادم بين وعيين وإرادتين :

* وعي الساذج ≠ وعي الشاطر (المقامات)
* وعي الكافر≠ وعي المؤمن ( السير الشعبية)
* وعي الشر ≠ وعي الخير ( الحكايات الشعبية ...)

ويقوم بناء الحكاية على دعامات العجائية والغرائبية، والتي تخلف لدى المتلقّى نوعا من الحيرة والتردد([[9]](#footnote-10)).

رغم كل الخواص المشتركة، فقد نما السرد العربي مُؤسّسّا لاختلافه في البناء وطريقة عرض الأحداث سواء بالنسبة للأشكال الكبرى أم الصغرى الخالصة أم الهجينة كما ترعرع ضمن مجددات دينية وثقافية ومؤطرة متنوعا يتلاحق ويتخصب بعناصره المتحركة فضلا عن كون السرود القديمة التي صيغت في أشكال تخيلية مختلفة تفسر رؤية أو تدعم شعيرة دينية.

الأمر الذي يقود الى التقاط خلاصات أولية بالنسبة للسرد العربي في جانبه الحكائي:

ترعرع السرد الحكائي العربي في بيئة ثقافية انفتحت على أشكال متنوعة تفصح عن تجذر الحكي والخبر في الأدب العربي، ابتدأت بالمغازي التي تمثل أولى أشكال الإبداع الشعبي، منذ بداية عهد الثقافة الإسلامية على أيدي ابن اسحاق، والواقدي وغيرهما وقصص الأنبياء وأخبار الأولين والسير ثم تطورت مع الحكايات والمقامات والرّحلات.... وهي نصوص يتقاطع فيها المرئي من المشاهد بالمسموع والمختلق والخيالي، وكل هذا ينصهر ضمن موروث ثقافي وديني وحضاري عام.

* حضور السمات التحويلية في بناء الخبر المرتوي بآثار الشفوي لكن سلطة التحويل تضع التجربة في مسار نسقي يصهرها ويعيد إدراكها ذهنيا مرة أخرى، تهيئيا لتدوينها .
* تموقع السرد بين التأريخ والتقييد، بين التجربة الفعلية والروحية، مما مهّد لنوع من الإدراك الخاص للواقع (الماضي والحاضر والمستقبل من جهة، والدنيا والآخرة من جهة ثانية ).ساهم في آلية كتابية تسعى إلى تخييل الحقائق وتحقيق الخيالات.
* تجذر خاصية التوالد بشكل كبير في السرد العربي باعتبارها النّفس الذي سيرسم للحكاية رحمها العامر بالتشويق والغرابة .
* مهيمنات كثيرة شكلت خواصّ متواترة في النصوص السردية لمجموعة في مؤلف واحد كالسير والليالي والمقامات أو النصوص الصغيرة الممثِّلة لحكاية واحدة حول موضوع واحد.

ومن ضمن هذه المهيمنات التي تتكرر وتشكل جزءا من البنية العامة في الحكاية (مهيمن الرحلة) سواء أكان رحلة المؤلف الباحث عن الحكاية أم شخصيات المحكي، لارتباط هذا المهيمن دائما بالمفاجآت والجديد دلاليا.

أما شكلا فمن أجل توسيع دائرة الحكي، وخلق نوافذ تنفيسية داخل عنصر آخر هو (مهيمن السيرة) الذي تشكل ضمن آداب التراجم والمغازي والأخبار.

1. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006 ص19. [↑](#footnote-ref-2)
2. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص23. [↑](#footnote-ref-3)
3. () ابن حجز العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ، مراقبة محمد عبد المفيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ج1، ص244. [↑](#footnote-ref-4)
4. () المرجع نفسه، ج2، ص329. [↑](#footnote-ref-5)
5. () المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر، دار الأندلس بيروت، (4 أجزاء)، ط6، 1984، ص ص410-411. [↑](#footnote-ref-6)
6. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص27. [↑](#footnote-ref-7)
7. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص29. [↑](#footnote-ref-8)
8. () ينظر، المرجع نفسه، ص31. [↑](#footnote-ref-9)
9. () ينظر، شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص32-33. [↑](#footnote-ref-10)